

اللغويون والإرث الشعري

د.منصوري عبد الوهاب

جامعة سيدي بلعباس

كان دور علماء اللغة والنحو عظيماً تجاه هذا الإرث الذي أصبح يُخشى عليه وبخاصة وأن الدولة الإسلامية اتسعت حدودها ودخل في الدين الجديد أناس كثيرون من غير العرب، فأصبح المجتمع يعجّ بأمم وحضارات مختلفة، وأضحت اللغة العربية التي كانت تُتلقى سليقة وطبعاً، وتُعرف فصاحتها وأساليبها فطرة في أمس الحاجة إلى أن يقعد لها وتدون المبادئ والأصول، وتجمع لها الشواهد حتى تقدم لهؤلاء الأعاجم الذين لا يمكن لهم أن يتعلموها ويتقنوها بالسليقة كما تعلمها أبناؤها الأصليون.^[1] هذه العوامل وغيرها هي التي دفعت ((اللغويين والرواة والنحويين دفعا كي يشمروا عن سواعدهم ويتهيئوا لجمع الشعر وتدوين اللغة ووضع القواعد (...)) وواجهت هؤلاء اللغويين والنحاة مشكلة انتقاء الأمثلة والشواهد لقواعدهم، من أين يختارون أمثلتهم، يختارونها من شعر هؤلاء الشعراء المولدين الذين لا يوثق بهم لكثرة ما في شعرهم من اللحن والخطأ والذين ضعفت عندهم السليقة العربية، أم يختارونه من شعر أولئك الفحول القدماء الذين نبتوا في صحراء الفصاحة ورضعوا لبان البلاغة؟^[2]

فلا غرابة أن يستبد الشعر القديم باللغويين والنحاة إلى درجة لم يقبلوا معه الشواهد والأمثلة لقواعدهم وأصولهم من الشعر المحدث، فكان في زعمهم أن ((الأدب الجاهلي أعلى قمم الشعر العربي على الإطلاق))^[3]، لذلك سيطر الشعر على التفكير النقدي، حيث إن معظم الأفكار والأصول الجمالية كانت مستنبطة منه، وكأنه الجنس الوحيد الذي كانت تموج به الساحة الأدبية إذ يعد ((الشعر الجنس الأدبي الذي وجه البلاغة العربية وأملى عليها مقولاتها ومصطلحاتها ورسم لها الطريق الذي نهجته فيما بعد، على الرغم مما كانت تموج به الثقافة العربية الإسلامية من أجناس الإبداع الأدبي المختلفة، التي لم يكن لها أي أثر حقيقي في هذه البلاغة))^[4] والدليل على ذلك الاستبداد الاهتمام البالغ الذي أحاطوه به وهذه القدسية التي لا يرقى إليها أي جنس أدبي آخر ومن هنا لوحظ أن ((النقاد القدماء لم يعطوا للنثر مثل ما أعطوا الشعر من العناية، فليس في كتبهم النقدية بحوث حاولوا فيها أن يدرسوا معاني النثر مثل معاني الشعر ومعرفة المبتكر منها والمنقول، أو يتقصوا فيها المعاني لمعرفة الآخذ من المأخوذ منه، وكذلك ليست عندهم كتب خاصة بدراسة كتاب النثر الذي شغل به النقاد، فالقرآن وحده هو الذي حظي بالدراسة حول إعجازه))^[5] بل إن علماء الإعجاز

وجدوا أنفسهم أسرى لهذا الجنس الأدبي الخارق حيث وازنوا في دراساتهم بين الأسلوب القرآني والشعر الذي كان متجذرا في ذهنية المتلقي بأسلوبه وجماله وأصوله، فدراسة أبي عبيدة: ((لم يكن هاجسها البحث عن المتغير النوعي وهو ما كان يجب أن يكون، وإنما انصرفت إلى إقرار الثوابت الأسلوبية في النص القرآني، بوصفها امتدادات طبيعية للمكونات الجوهرية الأولية لخطاب النص الغائب (أي النص الشعري) وعندئذ لا مجال للاعتراض على طرائق القول القرآني وعلى تركيبته اللسانية وإذا شئنا قلنا إن ما قامت به قراءة أبي عبيدة هي استقراء نموذجي وخلاصات وجيهة للثوابت الأسلوبية في النص الغائب))^[6]. فلا عجب أن تنحدر من الشعر أصول اعتمدها العلماء فيما بعد مقاييس، قاسوا بها الكلام العربي ظاهرا فقد فتن العرب بالشعر وبخاصة لما اكتملت صورته الفنية، فاضطروا إلى التنقيب واستنباط القواعد لتصنيف أصول فن الشعر العربي في متن جامع يضبطه (عمود الشعر) الذي يميّز تليد الصنعة من غيرها.

على هذا لا نستغرب إذا ما كانت المقاييس الفنية والجمالية للشعر مستنبطة وبدقة من الشعر القديم، وتبعاً لذلك فأي شعر يظهر إلى الوجود لأبد كي يحيا ويستمر أن يكون صورة طبق الأصل لهذه القواعد والمقاييس.

التقعيد اللغوي وتقديس القديم

برزت قضية القدماء والمحدثين إلى الوجود وكان باعثها تلك المقاييس التي وضعها اللغويون والنحويون وقسموا وفقها الشعر إلى قديم وحديث قديم مقدّس وحديث لا يرقى لهذا المقدس مهما أوتي من جمال وعليه: ((إذا كانت أصول الشعر القديم أصولاً عريقة حقاً فإن هؤلاء النقاد المتعصبين لها، والمدافعين عنها والذين لا يرون غيرها قد زادوها عراقاً وأصالة. ولذلك لن يكون مستغرباً أبداً أن تكون هذه الأصول الشعرية القديمة مصدر النقد في الحديث عن القيم الفنية الجمالية للشعر، وفي دراسته ونقده وتقويمه وفي وضع أصوله ومبادئه.))^[7]

إن اعتماد النقد القدامى على الشعر الجاهلي في وضع المقاييس النقدية دليل على بعد النقد عن كل تأثير خارجي، فالنقد العربي القديم ظل في منأى عن التأثيرات الخارجية حتى القرن الثالث الهجري، حيث ازدهرت حركة الترجمة ونقلت الآثار اليونانية إلى اللغة العربية، ومن بين هذه الآثار كتب أرسطو في الخطابة والشعر. غير أن النقد القدامى لم يستطيعوا فهم نظرية أرسطو في المحاكاة والتراجيديا والكوميديا أو أنهم أساءوا فهمها بحكم سوء الترجمة واختلاف طبيعة النقادين اليوناني والعربي.

قد يكون لتعلق القدماء بالشعر الجاهلي وتقاليده الفنية أثره الكبير في تقليل الإفادة من آثار اليونانيين أو بالأحرى تأخير هذا التأثير فقد ((كان نقاء الأدب العربي هو التعبير عما يشبه صمود العقل العربي ويسط الغزوات الثقافية التي تأتيه من كل مكان. ولذلك حرص على أن يشخصه جيل بعد جيل. شخصه أولاً برسم الصورة المثلى للغة العربية ممثلة في القرآن الكريم. وشخصه ثانياً بالإصرار على أن الأدب العربي صورة ناضجة كاملة النضج قبل أن تتصل الثقافة العربية بغيرها من الثقافات.)) [8] ومن ثم اعتبر من الأصول الأولى للنقد العربي التي تعد على درجة من الأهمية أن يعتقد الشاعر أياً كان حظّه من الإبداع بأهمية (الحكم) أو (المقوم) أو (الناقد).

تجلّى الحكم (الحكم) في العصر الجاهلي في عدّة صور:

أن يكون الشاعر نفسه حكم شعره. ويدخل هذا في النقد الذاتي، والذي كان صفة عامة في كل شاعر، وكان الواحد منهم يطبق شروطه الفنية على نفسه بكل قسوة تجنباً لتصنيف النقاد الآخرين له في خانة الشاعر المتأخر عن زملائه المتقدمين، فتصنيف النقاد في العصر الجاهلي لفئات الشعراء هو الذي كان يدفع بالشاعر لينقد نفسه قبل أن ينقده غيره، وهذا النوع من النقد المبكر هو الذي قلنا عنه إنه النقد الذاتي، أما التصنيفي فهو النقد الذي كان يواكبه ويحاذه فيخشاه الشاعر أشد الخشية فيعتمد على تجويد شعره حتى لا تصيبه سهام النقاد التصنيفيين. [9]

- أن يكون الحكم شاعراً مقلداً (الناطقة الديباني)
- أن يكون الحكم قبيلة بأكملها بشرط أن تنال إجماعاً على تفوقها فصاحة وبلاغة وعلماء، تقوم بما يقوم به الشاعر والناقد.
- أن يكون الحكم العرب قاطبة. غير أن تلك الأحكام لم ترق إلى مستوى النقد المعلل الذي يستند إلى معالم واضحة إلى أن جاءت محاولات اللغويين.
- هل أسهم النحويون واللغويون في النقد العربي؟

لا يخفى على أحد أن حفظ اللسان من اللحن الذي بدأ يتفشى كان من أهم الأسباب الداعية إلى وضع قواعد تصحيح اللسان وضبط الكلام، فبعد أن صار النحو قواعد مضبوطة وقوانين وحكما، بدأ النحويون ينبهون إلى أخطاء تجاوز فيها الشعراء أصول النحو وقواعده. ومن هنا بدأ النحويون يدخلون أبواب النقد، ثم إن طبيعة اختصاصهم تفرض عليهم التنبيه على وجه الصواب وهذا الأمر وجه من أوجه النقد. وصنيعهم النقدي هذا مبني على قواعد بعيدة عن الذوق، لأن المعيار المحكم عندهم هو الأصول النحوية وحدها.

كان للغويين فضل جليّ على النقد العربي فقد خاضوا في شعر الإسلاميين والجاهليين فوضعوا أشعارهم وحدّدوا أغراضهم ونقلوا خصوماتهم، إضافة إلى ذلك أنّهم أمدّوا النقد العربي بنصيب وافر من الروايات التي خصت الشعر والشعراء كعمل الأصمعي وابن سلام وأبي عمرو بن العلاء.

كان الشعر محل اهتمام العلماء والنقاد إذ يعد ((الجنس الأدبي التي خضعت له التصورات النقدية والبلاغية الموروثة على الرغم من اضطلاعها برصد أنماط تعبيرية أخرى تمثلت في القرآن والخطابة والترسل. فقد كان الأسلوب الشعري معيارا جماليا يوجه الأنظار وتتحاكم إليه الأصول والمبادئ مثلما كان معيارا في جل الأنظار الأسلوبية والبلاغية المعاصرة.)) [10]

لقد مهّد النحاة واللغويون الطريق بعد قيامهم بجمع هذا التراث الضخم أمام ((الناقد الذي يحقق هذا الفتح: الانتقال من طور التحسس والتخمين إلى طور التأسيس والتأصيل))^[11]. بحيث إن الدراسة الفنية للشعر كانت تتطلب أمورا أولها أن يكون هذا الشعر مجموعا ومحققا، والواقع أن الشعر بعد ذلك أصبح مصدرا للأحكام التي أصدرها العلماء حسب اتجاهاتهم المتنوعة، فهناك الأحكام النقدية اللغوية التي تعتمد على صحة البناء النحوي وصحة الصيغ، وهناك الأحكام النقدية البيانية التي اعتمد فيها أصحابها على دراسة النص الأدبي على أساس من العناصر الفنية واللفظية والمعنوية، ثم هناك الأحكام النقدية الفلسفية التي تأثر فيها أصحابها تأثيرا عميقا بالفكر الفلسفي اليوناني فدرسوا النص الأدبي من حيث الإلهام والخيال ووظائفهما في صياغة الفن الشعري.^[12]

النقد القديم وسلطة الشعر

شغل النص الشعري العلماء والنقاد فأحاطوه بعناية فائقة، فعمدوا إلى معرفة أسباب تأثيره العجيب في متلقيه من ناحية، واستنباط القواعد والأسس التي ينبني عليها من ناحية أخرى، وبخاصة وأن طبيعة الشعر تقوم على مفارقة عجيبة فهو من جهة جهد لغوي ومن جهة أخرى عمل خارق في بنيته وأثره. وهو الأمر الذي جعل هذا الجنس الأدبي سلطة متمكنة ومؤثرة أكثر من أي جنس أدبي آخر. وعليه وحده اعتمد الدارسون في استنباط الأحكام وتعميمها على باقي الأجناس الأخرى. لقد استنبط ابن طباطبا مثلا عددا لا بأس به من المقومات والمقاييس لحسن صناعة الشعر، ولم يهمل الجانب المنطقي في استخدام الأدوات والمقاييس، كما لا يكفي عند قدامة دراسة النحو والمعاني ولا معرفة الوزن والعروض التي هي

مندسة أصلا في طبع الشاعر الموهوب، وإنما المهم معرفة العناصر التي تجعل من هذا النص جيدا أو رديئا.

منذ أن كان الناس يتعاملون مع الشعر سماعا وهم يتعجبون لوقع هذا الجنس الأدبي في نفوسهم محاولين تفسير ذلك. ((ولما عجز العقل العربي في مرحلته الشفاهية البدوية عن التفكير المميز وتقصى الأسرار والتفسير، بفعل التأثيرات الخارقة للطبيعة، فإنه أرجع مسائل التفوق والإبداع والاختراع إلى علل غيبية باطنية غريبة وغير طبيعية قيل إنها ذات تأثير حاسم في التلقي، ثم في الكتابة الاستثنائية))¹³. ولذلك فإن للنقد في العصر الجاهلي في عمومها أحكاما عامة مجملة يظهر في صورة أخرى تتمثل في ((الإحساس بأثر الشعر في النفس وعلى مقدار وقع الكلام عند الناقد فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفا، والعربي يحس أثر الشعر إحساسا فطريا لا تعقيد فيه ويتذوقه جبلة وطبعا وعماده في الحكم على ذوقه وعلى سليقته فهما اللذان يهديانه إلى الجيد من فنون القول وإلى المبرز من الشعراء، فليست لديه أصول مقررة للكلام الجيد كما عند المحدثين مثلا، وليست لديه مقاييس يأتسب بها في المفاضلة بين الشعراء وليس لديه غير طبعه وذوقه.))¹⁴ إن العربي حتى في تلك المرحلة التي كان فيها مستمعا للنص كانت له آراؤه المتنوعة على الرغم من عدم استنادها إلى أسس معروفة أو مقاييس مألوفة أو أصول مقررة، ذلك أن ((الإبداع الشعري في تأسيسه النظري وجماليات تشكيله وانفتاحه على قراءات المتلقي قد خضع في مساره الطويل إلى جملة من التفسيرات الذوقية والمعارفية المتعارضة أو المتباينة أو المتضامة، استندت جميعها إلى سلسلة لا تكاد تنتهي من الآراء والحجج محاولة لكشف حقيقته ودوافعه ووظيفته التي تجعل منه عملا متميزا.))¹⁵ والظاهر أن حب العربي لهذا الشعر والاعتزاز به، هو الذي جعل هذه العلاقة الحميمة تربطهما وتجعله يتابع باهتمام بالغ لكل ما يصدر، محاولا تمييزه وتقويمه والموازنة بينه.

إذا كانت هذه المتابعة اللصيقة لجنس الشعر قد أنتجت في بدايتها هذه الأحكام العامة والمسرقة، فإنه لا يحق مطالبة النقاد القدماء بأكثر منها لأن الأحكام التفصيلية التي تحتاج إلى التحليل والتعليل ستكون لاحقا بعد أن تنتهي الفترة الزمنية التي كان فيها الناقد مستمعا وتبدأ فترة الجمع والتدوين ويصبح فيها الناقد مشتغلا على نصوص مدونة، وقد اكتسب من المعرفة ما تمكنه من استنطاق النص والتلاحم مع معطياته والتفاعل مع اتجاهاته، فيغدو النص منبثا فيه منعكسا في أنماط تفكيره وطريقة أدائه اللغوي.

الإحالات :

1. وليد قصاب، قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم، ظهورها وتطورها، ص. 21
2. وليد قصاب، قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم، ظهورها وتطورها، ص. 21
3. مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، دت، ص. 12
4. محمد مشبال، البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص. 67
5. طه مصطفى أبو كريشة، أصول النقد الأدبي، الشركة المصرية العالمية للنشر لوجمان، مصر، 1996، ص. 1
6. أحمد يوسف، بنية الخطاب البلاغي وسلطة النص الغائب، والقراءة بالمماثلة (سال)، ع7، المغرب، 1992، ص. 67
7. وليد قصاب، قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم، ظهورها وتطورها، ص. 22
8. مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ص. 11 - 12
9. ينظر قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان معامه وأعلامه، ص. 59 - 60
10. محمد مشبال، البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص. 85
11. محمد لطفي اليوسفي، الشعر والشعرية، ص. 25
12. ينظر حسن البنداري، الخطاب النفسي في النقد العربي القديم، مكتبة الآداب، 2001، ص. 8 وما بعدها
13. مصطفى درواش، خطاب الطبع والصنعة، رؤية نقدية في المنهج والأصول، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص. 111
14. طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص. 23
15. مصطفى درواش، خطاب الطبع والصنعة، رؤية نقدية في المنهج والأصول، ص. 186